هكذا كَانَ إنصافُ المخالفين عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحين

كتبه: أ.د. عارف بن مزيد السحيمي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ من المحامد التي يستحق عليها علماء أهل السنة والجماعة الشكر والثناء إنصاف أهل البدع، وانصافُهم يكون بوضعهم في منزلتهم اللائقة بهم وهو استحقاقهم للزجر والتحذير بشرط أن يجتمع في المحذِّر الإخلاص والقوة والاستطاعة ومراعاة حال الزمان والمكان والأشخاص.

وهذا هو العدل المأمور به شرعًا، وخلاف التعامل معهم في غير ما يستحقون من سكوتٍ عنهم أو إعلاءٍ لشأنهم نوع ظلم وغش للمسلمين.

قال الله ﷻ:﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام:١٥٢].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم، ذا قرابة لكم، ولا تحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره، أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه" [(١)].

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٢/٢٢٥)

وقال سبحانه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:١٥].

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقوله: وإذا قلتم فاعدلوا، يتضمن الشهادات والأحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك، أي ولو كان ميل الحق على قراباتكم " (١).

ومن إنصاف أهل الإسلام مع خصومهم ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: أفاء الله عز و جل خيبر على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فأقرهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كما كانوا وجعلها بينه وبينهم فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم ثم قال لهم: "يا معشر اليهود أنتم أبغض الخلق إليَّ قتلتم أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ وكذبتم على الله وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر فإن شئتم فلكم وإن أبيتم فلي فقالوا بهذا قامت السماوات والأرض قد أخذنا فاخرجوا عنا" (٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والله تعالى يحب الإنصاف بل هو أفضل حلية تحلى بها الرجل خصوصا من نصب نفسه حكما بين الأقوال والمذاهب، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ فورثة الرسول منصبهم العدل بين الطوائف وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه

---

(١) المحرر الوجيز (٢/٤٩٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣/٣٦٧)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: "إسناده قوي على شرط مسلم".

وطائفته ومتبوعه بل يكون الحق مطلوبه يسير بِسَيْرِه وينزل بنزوله يدين بدين العدل والإنصاف ويحكم الحجة وما كان عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فهو العلم الذي قد شمر إليه ومطلوبه الذي يحوم بطلبه عليه لا يثني عنانه عنه عذل عاذل ولا تأخذه فيه لومة لائم ولا يصده عنه قول قائل"[1].

ويكون الإنصاف بالتثبت من كلام المخالف وصحة نسبته إليه، وعدم تعدي الصدق وعدم تحميل كلامه ما لا يحتمل وعدم محاباة أحد لقرابة ونحوها في دين الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أرباب البدع والتصانيف المضلة ينبغي أن يشهر الناس فسادها وعيبها وأنهم على غير الصواب ليحذرها الناس الضعفاء فلا يقعوا فيها، وينفر عن تلك المفاسد ما أمكن بشرط أن لا يتعدى فيها الصدق ولا يفترى على أهلها من الفسوق والفواحش ما لم يفعلوه بل يقتصر على ما فيهم من المنفرات خاصة فلا يقال على المبتدع إنه يشرب الخمر، ولا أنه يزني ولا غير ذلك مما ليس فيه"[2].

ولا يلزم عند نقد أهل الأهواء سلوك منهج الموازنة بين حسناتهم

---

(١) «إعلام الموقعين» (٣/٩٤-٩٥).

(٢) «أنوار البروق في أنواع الفروق» (٨/٢٦١).

وسيئاتهم بل يقتصر على ذكر المساوئ دون الحسنات لئلا يغتر الجهلة والعامة بهذا المخالف وحتى لا يعلو شأن البدع والأهواء.

وهذا هدي نبوي شريف يدل عليه ما ورد في حديث فاطمة بنت قيس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا وفيه قالت: فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ: ((أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد)) رواه مسلم [1].

فذكر النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ شيئاً مما أخذ عليهما رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا مع كونهما من صحابته الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

ومما جاء عن السَّلف في تقرير هذا المنهج:

قال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: " قال ابن أبي الدنيا: أنبأنا أبو صالح المروزي سمعت رافع بن أشرس قال: كان يقال: (من عقوبة الكذاب أن لا يقبل صدقه)، وأنا أقول: من عقوبة الفاسق المبتدع أن لا تذكر محاسنه" [2].

وها هي كتب أئمة الإسلام مشحونة بالرد على أهل البدع وليس فيها ذكر شيء من محاسنهم مما يدل على أنه لا يلزم ذكر المحاسن في النقد.

---

(١) «صحيح مسلم» (٧/٤٤٧).

(٢) «شرح علل الترمذي» لابن رجب (١/١٢١).

وقد وجِّه سؤال للشيخ صالح الفوزان حفظه الله يقول فيه السائل: هل يلزمنا ذكر محاسن من نحذِّر منهم؟

فأجاب بقوله: "إذا ذكرت محاسنهم فمعناه أنت دعوت لاتِّباعهم، لا، لا تذكر محاسنهم أذكر الخطأ الذي هم عليه فقط؛ لأنه ليس موكولاً إليك أن تزكي وضعهم، أنت موكول إليك بيان الخطأ الذي عندهم من أجل أن يتوبوا منه، ومن أجل أن يحذره غيرهم، والخطأ الذي هم عليه ربما يذهب بحسناتهم كلها إن كان كفرًا أو شركًا، وربما يرجح على حسناتهم، وربما تكون حسنات في نظرك وليست حسنات عند الله"[1].

أما باب التعريف والترجمة فإنه أوسع فيُذكر ما عند المخالف من حسنات ومخالفات ويقبل الحق الذي معه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق حديثة عن المختلفين اختلاف تضاد: " لكن نجد كثيرًا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما أو معه دليل يقتضي حقًا ما فيرد الحق في هذا الأصل كله حتى يبقى هذا مبطلًا في البعض كما كان الأول مبطلاً في الأصل كما رأيته لكثير من أهل السنة في مسائل القدر والصفات والصحابة وغيرهم، وأما أهل البدعة فالأمر فيهم ظاهر وكما رأيته لكثير من الفقهاء أو لأكثر

(١) «الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة» (ص:١٣).

المتأخرين في مسائل الفقه وكذلك رأيت منه كثيرا بين بعض المتفقهة وبعض المتصوفة وبين فرق المتصوفة ونظائره كثيرة.

ومن جعل الله له هداية ونورا رأى من هذا ما يتبين له به منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا وأشباهه وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا ابتداء لكن نور على نور ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور"[١].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عندما نريد أن نقوم الشخص فيجب أن نذكر المحاسن والمساوىء لأن هذا هو الميزان العدل وعندما نحذر من خطأ شخص فنذكر الخطأ فقط لأن المقام مقام تحذير ومقام التحذير ليس من الحكمة فيه أن نذكر المحاسن، لأنك إذا ذكرت المحاسن فإن السامع سيبقى متذبذباً فلكل مقام مقال"[٢]. وبهذا يُعلم أيضًا خطأ من يدعو بإطلاقٍ للتحذير من البدع دون التعرض لأهلها بحجة أن هذا العمل من الغيبة التي تولِّد الشحناء بين المسلمين وتضيِّع أوقاتهم وتقسِّي قلوبهم.

وهذا القول فاسد يترتب عليه مخالفة منهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص:٣٩).

(٢)(لقاء الباب المفتوح ص:١٥٣).

وأتباعه في التحذير من المخالفة وأصحابها عند الحاجة مع ما يترتب عليه من فشو البدع وتلميع أصحابها وإضلال الناس عن المنهج الحق.

أما إذا اقتضت المصلحة عدم تسمية المخالف فليقتصر على التحذير من المخالفة فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ حذَّر من أناس بأعيانهم كما في تحذيره من ذي الخويصرة وراعى المصلحة في عدم التسمية في مواطن وسلك منهج: "مابال أقوام" وإعمال الدليلين أولى من إعمال دليل وإهدار الآخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة؛ فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين هذا أفضل "[١].

وأما دعوى أن هذا العمل من الغيبة فليس بسديد فإن التحذير من البدع وأهلها مستثنى من الغيبة كما قال بعضهم:

القدح ليس بغيبة في ستة　　　متظلم ومعرِّف ومحذِّر

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٣١).

ولمظهر فسقاً ومستفت ومَنْ طلبَ الإعانةَ في إزالة منكر[١]

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفصيله لهذه المواطن: "ومنها إذا رأيت متفقهاً يتردَّدُ إلى فاسقٍ، أو مبتدعٍ يأخذ عنه علماً وخفت عليه ضرره فعليك بنصيحته، ببيان حاله قاصداً للنصيحة"[٢].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإذا رأيت شخصًا ذا فساد وغي لكنه قد سحر الناس ببيانه وكلامه يأخذ الناس منه ويظنون أنه على خير، فإنه يجب عليك أن تبين أن هذا الرجل لا خير فيه وأن تثني عليه شرًا؛ لأجل ألا يغتر الناس به، كم من إنسان طليق اللسان فصيح البيان إذا رأيته يعجبك جسمه وإن يقل تسمع لقوله، ولكنه لا خير فيه، فالواجب بيان حاله" [٣].

وأما دعوى أن الردود تقسِّي القلوب فليس بصحيح لما يترتب على عدم الردود من تفشي الباطل وتأثر الناس به.

قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله في فتوى صوتية في موقعه جواباً على سائل يقول: "أثابكم الله، ما رأيُ سماحتكم فيمن يقول إنَّ كتب الرُّدود تُقَسِّي القلوب؟"

(١) انظر: «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للسفاريني (١/ ٨٥).

(٢) «رياض الصالحين» (ص: ١٨٢-١٨٣)، الأذكار (ص: ٣٤١).

(٣) «شرح رياض الصالحين» (ص: ١٧٦٧).

فأجاب بقوله: "لا، ترك الرُّدود هو الذي يُقَسِّي القلوب؛ لأنَّ النَّاس يعيشون على الخطأ وعلى الضَّلال فتقسو قلوبُهم. أمَّا إذا بُيِّنَ الحقُّ ورُدَّ الباطل فهذا ممَّا يُلَيِّن القلوب بلا شك".

وفق الله الجميع للزوم منهج أهل السنة والجماعة، وجنَّبنا مسالك أهل البدع والتفريط والإضاعة، إنه سميع مجيب.